المحاضرة 6

السرد العجائبي

من أهم الخصائص التي تتسم بها الأشكال السردية العربية القديمة نجد العجائبية؛ إذ تبنى أغلب النصوص السردية التراثية عل الخيال والعجيب، وهي تعمل على خلق عنصر التشويق والفضول في معرفة أسرار وخفايا ونتائج القصة.

تعريف العجائبية:

يتوزع مصطلح العجائبية بين عدة مصطلحات أهمها الفونتاستيك، الغرائبي، العجائبي، والسحري وكلها يصب في مفاهيم ذات معنى واحد وهو الاستغراب والدهشة والعجيب من أمر غير مألوف، كونه يمثل خرقا للمنطق والطبيعة .

يعرفه شعيب حليفي فيقول(عبارة عن حدوث أحداث غير طبيعية وبروز ظواهر غير طبيعية خارقة تنتهي بتفسير فوق الطبيعي باعتبارها غير معروفة وخارقة، وفن العجائب والخوارق فن اللامحدود واللامألوف، فن الخيال المتجاوز والطليق وابتكار المتخيل الذي لا تحده حدود) فالعجائبي هم كل ما هو غير طبيعي ومتجاوز للحدود والمعقول..

كما يرى أن العجائبي يرتبط بأمور عدة؛ فهو يرتبط بالماضي والغيبي وبما هو فوق الطبيعي وبالكرامات والمعجزات ويتخذ من الرؤى والأحلام سبيلا للبناء. ويعمل على خلق المفارقة والسخرية من المألوف والواقعي.

ويحضر السرد العجائبي في أشكال سردية عدة لعل أبرزها حكايات ألف ليلة وليلة،؛ التي تشتمل على نصوص من أصل هندي وأخرى من أصل الفارسي، كما تشتمل على قصص ترجع إلى العصر العباسي وأخرى تصور تاريخ مصر إبان العهد الفاطمي،

والنصوص الهندية والفارسية التي تحتوي عليها ألف ليلة وليلة هي تعبر بصفة عامة على الخيال؛ إذ تتميز بأسلوب تتخلله الصور الخارقة والحكايات العجيبة.

إن قدرة القص في ألف ليلة والتي تعمل على نقل السرد فيه بين عوالم الإنس والجن والحيوان، والكشف عن عوالم من السحر والخوارق والأسرار والطلاسم، تطير فيه الحيوانات بأنواعها حاملة الإنسان إلى أماكن بعيدة في وقت يسير... أضافت عنصر التشويق والخيال الفني.

يظهر العجائبي من خلال سرد الفضاء المكاني والزماني ووصف الشخصيات وأفعالهم والمزج بين الخيال والواقع الحقيقة والخرافة وتكسيرها للحدود بين عوالم الإنس والجن، وتتعامل مع الحيوان كما تتعامل مع الإنسان والعكس بالعكس وقد يمسخ الإنسان فيها حيوانا ويعود الحيوان إنسانا كما كان، وهي تكشف عن عوالم السحر والخوارق وترتقي بالمألوف إلى مستوى الغريب والعجيب"

تحكي القصص عن المغامرات العجيبة وانتقال الشخصيات بين الجزر والبحار، ففيها لا يحدد المكان بأبعاده الجغرافية المعروفة؛ بل يقدم بوصف عجيب كوجود جبل في الهواء من الزمرد الأخضر وبه عين جارية وترابه من المسك .. وغيرها من الأوصاف

فمثلا يحضر المكان في قصة السندباد البحري بتنوعه فهناك المغلق والمفتوح السفلي والعلوي فنجد السرداب والكهف والجبل والمغارة، يتداخل فيها الخيال والواقع وتتحول في لحظة من صورة إلى أخرى ، وتبعث على الرعب والخوف بعد أن كانت صورة للجمال وتنوع الأشجار والزهور والطيور كأنها جنة الله في أرضه.

تنقلنا حكايات السندباد إلى أماكن عجيبة متنوعة، في بعض حكاياته وهو مسافر خارج بغداد يصف السندباد الأماكن الباطنية لما دفن مع زوجته في بلاد سافر لها ومن عاداتها دفن الزوج الحي مع الزوج الميت، يقول يصف المغارة وهو منقطع الصلة بما هو فوق

الأرض ولا يفرق فيه بين الليل والنهار(وأما أنا فرأيت في تلك المغارة أموات كثيرين ورائحتها منتنة وكريهة، فلمت نفسي على ما فعلته...ثم إني صرت لا اعرف الليل من النهار...وصرت أمشي في جانب من المغارة فرأيتها متسعة الجوانب خالية البطون ولكن أرضها أموات كثيرين وعظاما رميمة من قديم الزمان ، فعند ذلك عملت لي مكانا في جانب المغارة بعيدا عن الموتى الطريين)

تحضر العجائبية بصورة كثيرة ومتنوعة في صورة الشخصية التي تقوم بأفعال خارقة أو أنها تمسخ في صورة حيوان أو نجد نصفها إنسان والنصف الآخر حيوان أو من خلال التباعد الزمني والانتقال من عصر إلى عصر أو في الأماكن الغريبة؛ التي ينتقل البطل فيها في لحظة إلى بلاد بعيدة وكل ذلك شكل من أشكال العجائبي.

لقد استطاعت شهرزاد من خلال عنصر العجائبية وكل ما يثير الدهشة والإكثار من صور العجيب في المكان والزمان والشخصيات أن تسحر شهريار بهذا العالم العجيب الغريب المليء بالسحر والأسرار والطلاسم.

إلى جانب نص ألف ليلة وليلة يحضر نص "رسالة الغفران" للمعري لتقدم رحلة سردية متخيلة إلى عالم الجنة والنار وكلها عالم من الغرائبية واللامعقول، وكذلك نص التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي الذي كانت وجهته إلى عالم الجن دليله هناك كائن من الجن اسمه "زهير ابن نمير"، الذي يرافق البطل إلى وادي الجن؛ حيث يعرفه بكل ما هو موجود هناك وفي هذا الوادي المليء بالمغامرات الغريبة نسج ابن شهيد نصه. وحضور الجن في النصوص يضفي سمة العجائبية عليها، فهو ينتمي إلى عالم الغيبيات .